# أزمة الإرادة والوجدان المسلم

## البعد الغائب في مشروع إصلاح الأمة*

صالح سبوعي*

هذا الكتاب - كما يبين مؤلفه الدكتور عبد الحميد أبو سليمان - محاولة للبحث في أسباب الضعف والقصور الذي أسلم الأمة إلى ما نراه ونشهده فيها من عجز وهوان، وتحديد "البعد الغائب في مشروع الإصلاح الإسلامي"، والوقوف على العطل الذي أدى إلى عدم نهوضها، والسعي للانطلاق بها نحو النهوض والريادة. وسعياً إلى تحقيق هذا الهدف، يحاول الكاتب بيان الأدوات المنهجية والثقافية اللازمة للإصلاح التربوي، ويستجلي أهم أسس هذا الإصلاح ومنطلقاته، كما يلفت النظر إلى مؤسسة الأسرة ودورها الفطري المحوري الذي هو مفتاح التشغيل في عملية تحقيق الإصلاح التربوي، والتغيير الاجتماعي والحضاري.

وقد جاء الكتاب في مقدمة وستة فصول، مع خاتمة تلتها أبيات شعرية وصفها المؤلف بأنها رسالة موجهة إلى الآباء من أجيال المستقبل.

---

* أبو سليمان، عبد الحميد أحمد، **أزمة الإرادة والوجدان المسلم: البعد الغائب في مشروع إصلاح الأمة** (في إصلاح الثقافة والتربية: رؤية إسلامية معاصرة) (دمشق: دار الفكر، ط1، 1425هـ/2004م).

* دكتوراه في اللغويات من الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، 2005م.

تناول المؤلف في الفصل الأول القضية الأساسية للكتاب، وهي مسألة الإرادة لدى المسلم؛ لهذا كان عنوان الفصل: **القضية: الإرادة**، حيث أكد إشكالية الكتاب المتمثلة في معرفة أسباب تدهور حال الأمة وقصور أدائها، وبالتالي معرفة السبل الموصلة إلى استنهاض همتها، واستعادة قدرتها، والبحث في نجاح مشروع الإصلاح، مع تأكيد أن إسقاط دور الطفولة وعدم فهمها وفهم دورها من أهم أسباب أزمة الأمة، وقصور أدائها، وعدم القدرة على تحريك كوامن الإرادة والطاقة فيها.

وحدد الدكتور أبو سليمان هدفه من هذا الفصل بأنه العمل على إعادة بناء النفسية المسلمة، واستعادة قدرتها وطاقتها الأخلاقية الحضارية الإبداعية بهدف إنجاح المشروع الحضاري الإسلامي، وتحديد أهدافه النبيلة، وأبعاده المختلفة التي تشمل الإسلام من حيث هو رسالة إلهية سامية، وتشمل الإنسانية المعذبة الحائرة المتصارعة، كما تضم المسلمين الذين هم في مجموعهم ضعفاء متصارعون وأذلاء مضطهدون مستعبدون (ص19).

وأثار المؤلف في هذا الفصل سؤالاً متعدد الجوانب مفاده: لماذا لم تنجح مشاريع الإصلاح الإسلامي؟ ولماذا لم تفلح تلك الجهود على مدى زمن طويل في أن تحقق جل الغايات المرجوة منها؟ وأين الخلل؟ وأين أخطأ النظر وجه الصواب؟ وما وجوه النقص في هذا كله؟ وكيف نضع أيدينا على مواقع الثغرات، وما تبقى من العثرات؟ (ص30).

## تشخيص الداء

خصص المؤلف الفصل الثاني لتشخيص الداء ومعرفة الأسباب التي أدت إليه، في محاولة للإجابة عن سؤال مفاده: ما أهم التشوهات والانحرافات الفكرية التي شوهت وضعضعت بناء الأمة النفسي، وحالت دون استرداد الأمة عافيتها، ومنعت مشروعها الأمة الحضاري من أن يحقق أهدافه، ويبلغ مقاصده وغايته؟

يحدد المؤلف أسباب الضعف والهوان الذي أصاب الأمة، وحال بينها وبين بلوغ غايتها، في ستة أنواع من التشوهات، هي:

1. تشوه الرؤية الكلية: وهو أخطر التشوهات؛ لكونه يتعلق بالإطار الكلّي لفكر الأمة وثقافتها، وتتلخص الرؤية الكونية الإسلامية عنده في ثلاثة قضايا أساسية هي: الغيب وما يتضمنه من الإيمان بالله الواحد الأحد، وفي الحياة التي خلق الإنسان لأجل تعميرها وبنائها، وفي الآخرة والمآل وما يتضمنه من مواجهة المصير إمّا خيراً وإما شرا. وبناء عليه، فرؤية المسلم لم تعد كونية توحيدية شمولية إيجابية قادرة على أن تقدم الدليل والهداية الكلية لفكر المسلم وضميره، وعلاقاته ونظمه، بل صارت عاجزة مشوهة (ص54).

2. التشوّه المنهجي: ويتمثل ــ تبعًا للتشوه الأول ــ في تحول الفكر الإسلامي إلى فكر نظري غارق في تأملات نظرية مدرسية، لا تجد طريقها إلى الحياة الاجتماعية للأمة بالتنقيب والملاحظة والتجريب؛ لأن ذلك يحتاج إلى ممارسة وتطبيق. وهو تشوه خطير أدى إلى عقمٍ منهجي خطير جعل المعرفة لدى المسلم عملية استظهار وتقليد ومحاكاة، يغيب فيها بشكل عام كل أثر فعال لعنصري الزمان والمكان، ومعرفة سنن الطبائع في المخلوقات والكائنات (ص58). ومن ثم بقي عقل المسلم وفكره نتيجة لذلك حبيس المجلدات والآراء المجردة، البعيدة عن التجربة والتطبيق.

3. تشوه المفاهيم: ويتمثل في تغيُّر أبعاد مفاهيم المسلم التي كانت تعدّ عامل حركة ونهوض، فتحولت إلى عامل عزلة وسكون، وصارت أداة حط من قيمة عقله، ووسيلة هدم ثقة الإنسان بنفسه بعد أن كانت أداة عزه، ووسيلة سموه.

ومن المفاهيم التي شُوهت مفهوم العبودية، ومركزية مفهوم التوحيد ودلالاته الحياتية، وذلك أدى إلى عزلة العلماء، وما نتج عنه من عجز فكري وجمود، وتوظيف الخطاب الترهيب لإخماد روح المحاكمة والنقد، وإرغام العامة – بسبب العجز الفكري – على الاستسلام والمتابعة والقبول، دون نقاش أو تفكير، في محاولة لإخماد روح المبادرة والإبداع، ونشر عقلية الطاعة العمياء والاستعباد. (ص65)

4. تشوه الخطاب: وهو رابع التشوهات الخطيرة التي أضرت بالعقل والوجدان والنفسية المسلمة نتيجة الانفصام بين النخبة الفكرية الإسلامية والنخبة السياسية، وقد نتج عنه فصام وعزلة وعجز فكري حوَّل فكر الممارسة والاجتهاد والتجديد والإبداع إلى فكر مدرسي نصي مغلق، ينعدم فيه الاجتهاد وروح النقد والفحص والتمييز، ويسود فيه الخضوع لمفهوم مقولة: "من علمني حرفًا صرت له عبداً" التي أخذت بحذافيرها دون إدراك لحقيقتها وأبعادها. (ص74)

5. التشوه الخامس: عقلية الشعوذة والخرافة: وهي تعني تشوه العقلية السننية وتدميرها لدى أبناء الأمة، وتعطيل مبدأ الأخذ بالأسباب وتدبير الأمور، والركون إلى التواكل والخرافة، وسيطرة الشعوذة على عقولهم وخواطرهم، وتبدد إرادتهم بالخرافات والأساطير، وأشباح عوالم الأرواح والأموات والجان والعفاريت ووقوعهم فريسة الأفّاكين والمشعوذين، وأدى بهم ذلك إلى الجهل والخرافة، والبعد عن سبيل العلم والبحث والتنقيب في ملكوت الله وسننه (ص79-80).

6. التشوه السادس: العرقية: يرى الكاتب أن العرقية العنصرية من أخطر ما ألم بالأمة من صور الانحراف العقدي والفكري، والتلوث الثقافي الذي مزق الأمة على مختلف المستويات، وبدد الجهود والطاقات (ص108)، وحال بين استثمارها خير استثمار، مما حوَّلها إلى حالة من الغثائية لا نفع فيها، يسودها التناحر الطائفي، والتقاتل العرقي.

## الطفل قاعدة الانطلاق

بعد تحديد أسباب الداء وأصل العلة، جاء دور العلاج والتغيير، وفي هذا الصدد يرى المؤلف أن الطفل "أهم الأبعاد والأسباب التي يجب الالتفات إليها بصفتها وسيلة أساسية لإحداث الإصلاح والتغيير المطلوب؛ وذلك لما للطفل من قدرة على تلبس الأحوال التي توفر شروط الإصلاح والتغيير الذي تنادي به حركات الإصلاح وتهدف إليه، وتؤدي إلى إعادة تأهيل الفرد المسلم، والمجتمع المسلم (ص123).

ونظراً لقصور الثقافة الإسلامية، فقد أصبح الطفل هو الحلقة التي يتكثف فيها عجز الأمة عن تغيير أحوالها وتجديد طاقتها؛ فإهمال شؤون تربية الطفل المسلم، وعجز الفكر المسلم في مجالها، وعدم إدراك أهمية التنمية التربوية والتعليمية للطفل في البلاد الإسلامية والتقصير المريع في توفير متطلبات هذه التنمية، كل ذلك يلخص أهم أسباب العجز عن إحداث الإصلاح والتغيير المطلوب في إعادة صياغة العقلية والوجدان لدى الطفل المسلم؛ ليكون في مستوى التحديات، ويستجيب لاحتياجات الأمة، ويتفاعل معها عقلاً ووجداناً (ص126).

## تشخيص الداء وبيان أصله

وفي رأي الدكتور أبي سليمان فقد كان غياب الطفل عن ميدان التغيير الاجتماعي، وإصلاح الأمة، والاقتصار على توجيه الخطاب الوعظي إلى البالغين، ذلك كله كان من الأسباب التي عوقت حتى اليوم بلوغ مشروع الخطاب الإسلامي غاياته السامية، على الرغم من تمادي الأزمان وتعدد دعوات الإصلاح والتغيير وتواترها (ص131). وذلك لأن عملية النهوض والبناء تحتاج إلى بناء الجانب النفسي والوجداني الذي يعد أمراً أشمل وأهم من الجانب المعرفي للفرد المسلم، وذلك لا يتم إلا في مرحلة الطفولة التي يجب أن يُعتمد فيها على عنصر الإقناع والتشجيع والاحترام، وإفساح المجال لروح المبادرة والإبداع، وتحمل المسؤولية لأجل بناء الشخصية المسلمة المراد بناؤها وإيجادها.

وبما أن المسلمين قد أهملوا الخطاب النبوي التربوي الرؤوم في خطاب الطفل، وأحلوا محله خطاب الاستهانة والقسر والترهيب، فلم يحفلوا بدراسة الطفولة وتنميتها، واستنبات القدرات والطاقات النفسية والجسدية الكامنة فيها، و لم يوظفوها لتحقيق التغيير واستعادة الطاقة؛ ذلت شعوبهم، وخمدت مكامن الطاقة فيها، واستقدموا القبائل والمماليك والأغراب والأعداء للذود عن أنفسهم وحماية بيضة دولهم، وليقمعوا شعوبهم ويجعلوها وأنفسهم - في خاتمة المطاف - فريسة سلاح جندهم وقهر أعدائهم. (ص171)

## الحل الأساسي: بناء الطفولة

إن علاج داء الأمة، وإخراجها من مرضها، وحالة الغثائية التي تعيشها، كل ذلك يحتاج إلى إحداث التغيير في طبيعة البناء النفسي والوجداني للطفل المسلم، والعمل على إعادة تشكيل العقلية المسلمة لتكون علمية إبداعية إيجابية بناءة، بكل ما يتضمنه من مبادئ وقيم ومفاهيم وتصورات توحيدية استخلافية. ومن هنا كانت أهمية الاستثمار المكثف في ميدان التربية الذي يتم من خلاله إعادة تشكيل الشخصية المسلمة، وتحريرها، وبناء فرد سوي قويم يكون عضوًا فعالاً في الأمة، ويكون ذا عقل مفكر متدبر من الناحية المعرفية، ونفسية حرة إيجابية ومؤثرة، تتحلى بالشجاعة والمبادرة، والبذل والعطاء. (ص206)

## الأسرة المسلمة منبع الوجدان

إن من عوامل نجاح مشروع التربية أن يفهم المربي طبيعة الطفولة والمراحل التي يمر بها الطفل، ويدرك طبيعة كل مرحلة من مراحلها، وما يقدر الطفل أن يعيه ويتحمله في كل واحدة من تلك المراحل، حتى لا يكلَّف الطفل فوق طاقته، ولا يخاطب بما هو فوق إدراكه، أو يترك هملاً فتفوت فرص تنميته وتقويمه، دون رعاية ولا توجيه ولا إرشاد، مما يضيِّع فرصًا لا تعوَّض في تكوين عقلية الطفل ونفسيته ووجدانه، وذلك لأن لكل موسم بذرًا، ولكل صيد موسِمًا، ولكل زرع حصادا. (ص221)

وهنا تأتي مهمة الأسرة بوصفها المحضن الأول والأهم للطفل نفسيًّا وماديًّا، ولها التأثير الأكبر في توجيهه وبلورة بنائه النفسي والوجداني إيجاباً أو سلبًا، وتشكيله بالقدر الذي تمارسه أو بالكيفية التي تسمح للآخرين بممارستها معه من أجل بنائه والتأثير فيه، والعناية بتربيته. ويشير الكاتب هنا إلى أن تطوير مناهج هذه التربية وتنقية الثقافة والمفاهيم التي يرضع الطفل لبنها في سني صباه لم تكن في بؤرة الاهتمام العلمي والتطوير العملي لدى أهل المعرفة والفكر والقرار في العالم الإسلامي، وصارت أقرب إلى التأثر العفوي أو

السلبي ـــ بوعي وبدون وعي ـــ بالممارسات والموروثات والتصورات المتأصلة في المجتمع. لذلك شوهت وأخمدت الطاقة الوجدانية في الأمة، وأصبحت جسداً خامداً يحتاج إلى علاج وإنعاش، ويتمثل ذلك في تفعيل دور المرأة والأسرة واستعادة الطفل، وتنميته التربوية، بوصفه عاملاً أساسيًّا في خطط التغيير والإصلاح. (ص246)

ويطرح الكاتب في الفصل الخامس سؤالين آخرين هما: كيف يمكن للأمة أن تحقق الاهتمام بالطفولة والنهوض بها، وجعلها عنصراً رئيسًا في عملية النهوض والبناء؟ وكيف للأمة أن تكسب معركة تربية الطفل وتنشئته إسلاميًّا في الوقت الذي تعاني هي ذاتها من تشوهات موروثها الثقافي، وفي الوقت نفسه الذي تعاني فيه من هجمة الغزو الفكري والإعلام العالمي، ومن انبهار الصفوة السياسية والمدنية بقدرات الحضارة الغربية التكنولوجية وزخرفها المادي العمراني الأمر الذي يجعلها تخضع للسياسات والغايات الاستعمارية ولوسائلها القهرية التي تستغل انبهارها الحضاري وجهلها الإسلامي، وفسادها السياسي والاجتماعي، وانفصالها عن أحاسيس شعوبها وهمومها، لتبقى على جهالة الأمة، وتخلفها، وضعفها النفسي والمعرفي؟

وإجابة عما سبق يرى الكاتب أن أفضل ما يمكن به تحقيق التغيير هو كسب معركة الطفل، ويكمن ذلك في فهم أثر الأسرة في تربية الطفل المسلم وتكوين ضميره، وصياغة وجدانه، وتشكيل بنائه النفسي. (ص246)

إن طوق الإنقاذ و"سيناء"* عصر العولمة، ومفتاح التشغيل من أجل التغيير الإيجابي في الأمة، يجب أن ينبع من نفس المسلم، ولا يعتمد على أحد إلا الله تعالى، ثم على نفسه، دون أمر ولا إذن من النخب المسلوبة الإرادة، ودون ضغط من مصالحها المتعارضة. وهذا الطوق، وهذه الـــ "السيناء" إنما يتمثلان في الأسرة: محضن روح الطفل ووجدانه،

* يشير الكاتب هنا إلى ما كان من أمر بني إسرائيل الذين تاهوا في صحراء سيناء أربعين سنة حتى جاء من نسلهم من تطهر من نفسية العبيد، وتحلى بنفسية الأبطال المحررين. (ص248)

ومصنع بنائه النفسي الذي يقوم على دعائم الدافع الذاتي القطري، دافع "الأبوة" الذي يهدف دائمًا إلى ما فيه مصلحة الطفل وحده دون سواه، وعلى أساس من المفاهيم الواضحة للآباء، واقتناعهم بما فيه تحقيق مصالح أبنائهم وفلذات أكبادهم. (ص248)

والأمر عندئذ يعتمد على المفكر والتربوي والمصلح المسلم في ذاته وجهده ليقوم بواجبه في إمداد الآباء بالثقافة والتصورات التربوية العلمية الإسلامية السليمة، وتحقيق اقتناع هؤلاء الآباء والأمهات بما فيه مصلحة أبنائهم، وكيفية تشكيل بنائهم النفس والوجداني على أسس إسلامية سليمة توفر لهم سعادة الدارين. (249)

وبإمكان المدرسة أن تمارس أثرًا فعّالاً في خدمة الأمة وتطوير نوعية الأجيال وقدراتهم، وذلك عن طريق تقديم برامج تربوية للآباء، وإعدادهم لأداء مهمتهم بالقدر المتطور الذي تسمح به ظروف المجتمع الاجتماعية والحضارية، وأن تجعل تثقيف الآباء وتوعيتهم وتزويدهم بالمفاهيم والقدرات اللازمة جزءًا لا يتجزأ من برنامج عمل المدرسة ودورها في المجتمع. ويستطيع التعليم العالي أن يسهم في هذه المهمة من خلال برامج دراسية إجبارية لمنسوبيه من الشباب تعدهم لتكوين أسر إسلامية ناجحة، والقيام بواجبهم في تربية أبنائهم، وتوجيههم الوجهة الإسلامية الحضارية الفعالة. (ص249)

وتقديرًا لعظم أهمية التربية والتعليم في تكوين الجيل المطلوب، يوجه الكاتب النداء الآتي: "إن على فئات الأمة كافة: مفكرين، ومصلحين، وآباء، وأمهات، ومربين ومعلمين، أفرادًا ومؤسسات، أن يولوا شؤون التربية والتعليم الأولوية والأهمية والجهد المطلوب لهذا المجال الهام، لإعادة بناء قواعد كيان الأمة وتفجير طاقتها في طفولة أبنائها، وتنمية مواردها البشرية على أسس معرفية ووجدانية إسلامية علمية سليمة". (ص270)

## خطة العمل

ختامًا، يدعو الكاتب إلى عقد مؤتمر يضم الصفوة من المفكرين والعلماء والمثقفين من المسلمين ليتناول المجالات الأساسية في حياة الأمة، فيرسو الأسس ويبسطوا المقاصد

والكليات، والمبادئ، والثوابت ويضعوا الأولويات، ويشخصوا التحديات، وذلك لإصدار بيان عالمي يكون بمترلة دليل عمل يضع القواعد المنهجية، ويرسم الإطار، ويضيء سبيل التغيير والحركة والإصلاح في مجال المعرفة والثقافة والتربية والتعليم، ويسد الطريق أمام سوء الفهم، والضلال والتضليل، وانحرافات الفكر وتضارب الاتجاهات. (ص310)

ويقدم المؤلف في الوقت نفسه نموذجًا يعده رائدًا في مجال التربية والتغيير، وهو نموذج الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ونموذج المدرسة العالمية الإسلامية التي هي تبع للجامعة الإسلامية نفسها ثقافة وغاية، بوصفهما مثالين يمكن احتذاؤهما في مجال التربية الحسنة، وتحقيق التغيير المنشود، وإعداد الأجهزة البديلة.

والسؤال الذي يطرح نفسه ــ هنا ــ هو: ما مدى نجاح النموذج الرائد الذي طرحه الكاتب في خلق الإطارات البديلة المتحلية بإسلامية المعرفة؟ وما مدى إسهامه في إيجاد الشخصية المسلمة المراد إيجادها؟ خصوصًا بعد الشوط التجريبي الذي قضته كل من الجامعة والمدرسة العالميتين في التربية والتكوين؟

أخيرًا، أقول إن الكتاب محاولة جادة تستحق الدراسة والاهتمام، وأضم صوتي إلى صوته بضرورة عقد مؤتمر لتكوين دليل عمل، أو لبسط أسس ومبادئ لدليل عمل تربوي يكون المنطلق للتغيير نحو الأفضل، ولا يبقى ذلك الدليل مجرد حبر على ورق حبيس الأدراج والرفوف، بل يفعل ميدانيًّا من أجل بلوغ الثمرة، وتحقيق خيرية هذه الأمة، مع إيجاد أسس ومعايير لتقويم التجربة الإصلاحية، والحيلولة دون الانحراف عن المبدأ، والتحول عن الغاية.

## ملاحظات وتعليقات

أدخل الكاتب حركة كمال باشا أتاتورك (ت1938) ضمن حركات الإصلاح الإسلامي التي امتازت بصحة المنطلقات، وسلامة الغايات! (ص122) وهذه مسألة غريبة؛

لأن كمال أتاتورك هو الذي ألغى العمل بالشريعة الإسلامية واستبدل بها القانون السويسري، وألغى الخلافة الإسلامية، وأحل محلها علمانية متطرفة ما زالت تكبّل الشعب التركي المسلم وتمنعه من العودة إلى دينه وجذور حضارته إلى يومنا هذا.

أورد الكاتب الكثير من الجداول التوضيحية البيانية المبثوثة في ثنايا الكتاب (ص52، 271) وهي في الواقع لا توضح كثيرًا مما وضعت لتوضيحه أصلاً، بل يغلب عليها التعقيد والبعد عن البساطة والوضوح، هذا إن لم يكن لها داعٍ أصلا.

وجود قدر من الأخطاء الطباعية واللغوية التي قد تعكر من صفو قراءة الكتاب وسلاسة أفكاره، وهذه الملاحظة تتجه إلى الناشر وإلى صاحب الكتاب على السواء، من أجل التدقيق في ما ينشر قبل إرساله إلى المطابع.

وأخيرًا، فإن "الأبيات الشعرية" التي أوردها الكاتب في خاتمة كتابه، ووسمها بأنها رسالة موجهة لآباء المستقبل (ص321)، هي للخاطرة النثرية أقرب ومن القصيدة الشعرية أبعد؛ لافتقادها لعناصر الشعر العربي العمودي المتعارف عليها.